رسالة

في

السماع والرقص

جمع

الشيخ محمد بن محمد المنبجي الحنبلي

علق عليها وخرج أحاديثها

محمد صبحي حسن حلاق

دار ابن حزم

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م

[مُقَدِّمَةُ المؤلِّف]

بسم الله الرحمن الرحيم

● سُئل شيخ الإسلام بحر العلوم تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رضي الله عنه[1] عن صفة (سماع الصالحين) ما هو؟ وهل سماع القصائد الملحنة بالآلات المطربة هو من القرب والطاعات، أم هو محرم أو مباح[2].

● فأجاب: الحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين، وأشهدُ أنْ لا إلَه إلَّا الله وحدَهُ لا شريكَ له وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلم. أصلُ هذه (المسألة) أن يُفَرَّقَ بين السماع الذي يُنتفَعُ به في الدين وبين ما يُرخصُ فيه رَفعاً للحرج، وبين سماع المتقربين وسماع المتلعبين. فأما السماع الذي شرعه الله لعباده وكان سلفُ الأمةِ من الصحابةِ والتابعين،

وتابعيهم يجتمعون عليه لصلاح قلوبهم، وزكاة نفوسهم ـ فهو سماع آيات الله. وهو سماع النبيين والمؤمنين، وأهل العلم، وأهل المعرفة. فإن الله تعالى لما ذكر من ذكره من الأنبياء عليهم السلام في قوله:

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩) ﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾[4].

وبهذا السماع أمر الله تعالى في قوله:

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1].

وعلى أهله أثنى تعالى كما في قوله تعالى:

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[2].

وقال تعالى في الأخرى:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[3].

فالقول الذي أمروا بتدبره هو الذي أمروا بسماعه وقال تعالى:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾[4].

● ● ●

وكما أثنى تعالى على هذا السماع ذم تعالى المعرضين عن هذا السماع فقال تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾[5].

وقال تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[1].

وقال تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[2].

وقال تعالى :

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴾[3].

وقال تعالى :

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾[4].

وقال تعالى :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾[5].

وهـذا هو السمـاع الذي شـرعه الله للمسلمين في صلواتهم وخطبهم كصلاة الفجر وصلاة العشاءين وفي غير ذلك.

● ● ●

وعلى هـذا السماع كـان أصحاب رسـول الله ﷺ يجتمعون وكانوا إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم يقرأ والباقي يستمعون، وكان عمر يقول لأبـي موسى ذكِّرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون[1].

وهذا هو السماع الذي كان النبـي ﷺ يشهده مـع أصحابـه ويستـدعيـه منهم كمـا في الصحيحين[2] عن عبـد الله بن مسعـود أن النبـي ﷺ قـال له: «إقرأ عليَّ»، قال: قلتُ أقـرأ عليك وعليـكَ أُنزل، قال: «إني أُحِبُّ أن أسمعـه من غيري»، فقرأت عليـه سـورة النساء حتى وصلتُ إلى هذه الآية:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾[3].

قال: «حسبك فإذا عيناه تذرفان».

وهذا هو الذي كان النبـي ﷺ يسمعه وأصحابـه. كما قـال تعالى:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[4].

والحكمة هي السنَّة. وقال تعالى:

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾[1].

وكذلك غيره من الرسل صلوات الله عليهم قال تعالى:

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[2].

وكذلك يحتج عليهم يوم القيامة كما قال تعالى:

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا . . . ﴾[3] الآية.

وقال تعالى:

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ . . . ﴾[4] الآية.

وقد أخبر الله تعالى أن المعتصم بهذا السماع مهتد مفلح والمعرض ضال شقي. قال الله تعالى:

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا[1] وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ ﴾[2] الآية.

وقال تعالى:

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾[3].

وذكر الله يراد به تارة ذكر العبد ربه ويراد به الذكر الذي أنزله الله كما قال تعالى:

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾[5].

وقال:

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٌ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٌ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٌ وَقُرۡءَانٌ مُّبِينٌ﴾[5].

• • •

وهذا السماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية، والأحوال الزكية، ما يَطولُ شرحُها ووصفُها. وله في الجسد آثارٌ محمودةٌ من خشوعِ القلب ودموعِ العين، واقشعرارِ الجلد. وهذا مذكورٌ في القرآن، وهذه الصفات موجودة في الصحابة ووجدت بعدهم آثار ثلاثة من الاضطراب: الصراخ والإغماء والموت في التابعين.

وبالجملة فهذا السماع هو أصلُ الإيمان فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى الخلق أجمعين ليبلغهم رسالات ربهم فمن سمع ما بلغه الرسول فآمن به واتبعه اهتدى وأفلح، ومن أعرض عن ذلك ضَلَّ وشقي.

● ● ●

وأما سماع المكاء والتصدية. فالتصدية هي التصفيق بالأيدي. والمكاء مثل الصفير ونحوه. فهذا سماع المشركين الذي ذكره الله تعالى في قوله:

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾[1].

فأخبر الله تعالى عن المشركين أنهم كانوا يتخذون التصفيق باليد والتصويت بالفم قربة وديناً. ولم يكن النبي ﷺ وأصحابه يجتمعون على مثل هذا السماع، ولا حضروه قط. ومن قال إن النبي ﷺ حضر ذلك فقد كذب عليه، باتفاق أهل المعرفة بحديثه وسنّته. والحديث الذي ذكره محمد بن طاهر المقدسي[2] في (مسألة السماع) وفي (صفة التصوف) ورواه من طريقه الشيخ أبو حفص عمر السُّهْرَوَرْدي[3] صاحب (عوارف المعارف) (أن

النبـي ﷺ أنشده أعرابـي:

قـد لسعَتْ حية الهـوى كبدي فـلا طـبيـب لهـا ولا راقـي
إلاَّ الحبيب الـذي شُغِفْتُ بـه فـعنــده رقـيتـي وتــريــاقـي

فتـواجد حتى سقـطت البردة عن منكبيـه، فقـال معـاويـة: ما أحسن لهوكم فقال: مهلاً يا معاويـة ليس بكريم من لم يتـواجد عند ذكر الحبيب)[1]. هو حديث مكـذوب موضـوع باتفـاق أهـل

العلم بهذا الشأن. وأظهر منه كذباً حديث آخر يذكرون فيه (أنه لما بُشِّرَ الفقراءُ بسبقهم للأغنياء إلى الجنة[1] تواجدوا وخرقوا أثوابهم، وأن جبريل نزل من السماء فقال: يا محمد، إن ربك يطلب نصيبه من هذه الخروق فأخذ منه خرقة فعلقها بالعرش وأن ذلك هو زيق[2] الفقراء)[3]. وهذا وأمثاله إنما يرويه من هو من أجهل الناس بحال النبي ﷺ وأصحابه ومن بعدهم بمعرفة الإيمان والإسلام وهو شبيه برواية من روى (أن أهل الصُّفة[4]

قاتلوا مع الكفار لما انكسر المسلمون يوم حنين، أو غير يوم حنين، وأنهم قالوا نحن مع الله من كان معه كنا معه)[1]. ومن روى(أن صبيحة المعراج وجد أهل الصُّفة يتحدثون بسر كان الله أمر نبيه أن يكتمه فقال لهم: من أين لكم هذا فقالوا: الله علمنا إياه فقال: يا رب ألم تأمرني أن لا أفشيه فقال: أمرتك أنت أن لا تفشيه ولكن أنا أعلمتهم به)[2]. ونحو هذه الأحاديث التي يرويها طوائف منتسبون إلى الدين مع فرط جهلهم بدين الإسلام، ويبنون عليها من النفاق والبدع ما يناسبها.

وتارة يسقطون التوسط بالرسول وأنهم يصلون إلى الله من غير طريق الرسول مطلقاً وهذا أعظم من كفر اليهود والنصارى فإن أولئك أسقطوا وساطة رسول واحد ولم يسقطوا وساطة الرسل مطلقاً. وهؤلاء إذا أسقطوا وساطة الرسل مطلقاً عن أنفسهم، كان هذا أغلظ من كفر أولئك، لكنهم يقولون: لا تسقط الوساطة إلاَّ

عن الخاصة لا عن العامة فيكونون أكفر من أهل الكتـاب من جهة إسقـاط السفارة مـطلقاً عنهم. وفي بعض الأحـوال وأهل الكتـاب أكفر من جهة إسقاط السفارة مطلقاً بل أهل الكتاب الذين يقـولون إنه رسول إلى الأميين دون أهل الكتاب خير من هؤلاء فإن أولئـك أخرجوا عن رسالته من لـه كتاب وهؤلاء يخـرجون عن رسـالته من لا يبقى معه إلاَّ خيالات ووساوس وظنون ألقاها إليـه الشيطان مـع ظنه أنه من خواص أولياء الله وهو من أشد أعداء الله.

وتـارة يجعلون هذه الآثـار المختلقة حجـة فيما يفتـرونه من أمور تخالف دين الإسلام، ويَدَّعون أنها من أسرار الخواص، كما يفعله الملاحدة[1] والقرامطة[2] والباطنية[3].

وتـارة يجعلونهـا حُجَّـةً في الإعـراض عن كتـاب الله وسنَّـة رسول الله ﷺ إلى ما ابتدعوه من اتخاذ دينهم لهواً ولعباً.

● ● ●

وبالجملة قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن النبـي ﷺ لم يشـرع لصـالحي أمتـه وعُبَّـادِهِم وزُهَّــادِهم أن يجتمعـوا على استمـاعِ الأبيات الملحنـة مع ضـرب بالأكف أو ضـرب بـالقضيب أو الدُّف[1] كما لم يبح لأحد أن يخرج عن متابعتـه واتباع مـا جاء بـه من الكتـاب والحكمـة لا في بـاطن الأمـر، ولا في ظـاهــره، لا لعـامي ولا لخاص ولكن رَخَّصَ النبـي ﷺ في أنـواع من اللهـو في العـرس ونحـوه، كمـا رخص للنسـاء أن يَضْـربن بـالـدُّف في الأعراس والأفراح. وأمَّـا الرجـالُ على عهده فلم يكن أحـدٌ منهم يضرب بدف، ولا يصفق بكف، بـل قد ثبت عنـه في الصحيح[2] أنــه قـال: إنمــا (التَّصفيق للنســاءِ والتسبيــحُ للرجــالِ) (ولَعَنَ المتشبهاتِ مِنَ النِّسَاءِ بالرجالِ والمتشبيهنَ من الرجالِ بالنِّساءِ)[3] ولمـا كان الغنـاء والضرب بـالدف والكف من عمـل النساء. كـان السلف يسمـون من يفعل ذلـك مخنثاً ويسمـون الـرجـال المغنين مخانيث وهذا مشهور في كلامهم.

(ومن هـذا الباب) حـديث عائشـة رضي الله عنها لمـا دخل عليها أبو بكر في أيام العيد وعندها جاريتان من الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث[1] فقال أبو بكر: (أَبِمُـزْمُورِ الشيـطان في بيتِ رسـولِ اللّهِ ﷺ ــ وكـان النبـي ﷺ معـرضـاً عنـه مقبـلاً بوجهه إلى الحـائط فقال: دَعْهُمـا يا أبـا بكر فـإن لكل قـومٍ عيداً وهـذا عيدنـا أهل الإسلام)[2]، ففي هـذا الحـديث بيـان أن هـذا لم يكن من عادة النبـي ﷺ وأصحابه الاجتماع عليـه ولهذا سَمَّـاه الصِّـديقُ أبو بكـر رضي الله عنه مـزمور الشيـطان، والنبـي ﷺ أَقَرَّ الجواري عليه مُعَلِّلاً ذلكَ بأَنَّهُ يومُ عيـد والصغار يُـرخصُ لهم في اللعب في الأعيـاد، كما جـاء في الحديث (ليعلم المشـركـون أن في ديننـا فسحـة)[3] وكمـا كـان لعـائشـة لُعَب تلعب بهن وتجيء صواحباتها من صغار النسوة يَلعَبن معها.

وليس في حديث الجاريتين أنَّ النبـيَّ ﷺ استمـعَ إلى ذلك، والأمـرُ والنهيُ إنما يتعلق بـالاستماع لا بمجـرد السمـاع كمـا في الرؤية فإنه إنما يتعلق بقصد الرؤية لأنها يحصل منها بغير الاختيار وكذلك في اشتمام الطيب إنما يُنْهىٰ المُحْرم عن قصد الشم، فأما

إذا شم ما لا يقصده فإنه لا إثم عليه. وكذلك في مباشرة المحرمات كالحواس الخمس من السمع والبصر والشم والذوق واللمس إنما يتعلق الأمر والنهي في ذلك بما للعبد فيه قصد وعمل، وأما ما يحصل بغير اختياره فلا أمر فيه ولا نهي وهذا مما وجِّه به الحديث الذي في السنن حديث ابن عمر (أنه كان مع النبي ﷺ فسمع صوت زمارة راعٍ فعدل عن الطريق وقال: هل تسمع؟ حتى انقطع الصوت)[1]، فإن من الناس من يقول بتقدير صحة الحديث لم يأمر ابن عمر بسد أُذنيه فيجاب بأن ابن عمر لم يكن يستمع وإنما كان يسمع وهذا لا إثم فيه وإنما النبي ﷺ عدل طلباً للأكمل والأفضل كمن اجتاز بطريق فسمع قوماً يتكلمون بكلام مُحَرَّم فسدَّ أُذنيه كيلا يسمعه، فهذا حسن ولو لم يسد أذنه لم يأثم بذلك، اللَّهم إلَّا أن يكون في سماعه ضرر ديني لا يندفع إلَّا بالسد.

● ● ●

وبالجملة فهذه مسألة السماع تكلم فيها كثير من المتأخرين في السماع هل هو محظور؟ أو مكروه؟ أو مباح؟ وليس المقصود بذلك رفع الحرج بل مقصودهم بذلك أن يتخذ طريقاً إلى الله يجتمع عليه أهل الديانات لصلاح القلوب، والتشويق إلى المحبوب، والتخويف من المرهوب والتحزين على فوات المطلوب، يستنزل به الرحمة ويستجلب به النعمة، ويحرك به مواجيد أهل الإيمان ويستجلي به مشاهد أهل العرفان حتى يقول بعضهم إنه أفضل لبعض الناس أو للخاصة من سماع القرآن من

عدة وجوه؛ وحتى يجعلونه قوتاً للقلوب، وغذاء لـلأرواح وحاديـاً للنفوس يحدوها على المسير إلى الله عز وجل ويحثها على الإقبال عليه. ولهذا يوجد من اعتاده واغتذى به لا يحب القرآن ولا يفـرح به ولا يحدي في سماع الآيات كما يحدي في سمـاع الأبيات، بل إذا سمعـوا القرآن سمعـوه بقلوبٍ لاهية وألسن لاغيـة وإذا سمعوا سماع أهل المكاء والتصدية خشعت الأصوات وسكنت الحـركات وأصغت القلوب، وتعاطت المشروب. فمن تكلم في هذا هل هو مكروهٌ أو مباحٌ وشبهه بما كان النساء يُغنين به في الأعياد والأفـراح لم يكن قد اهتدى إلى الفرق بين طريق أهـلِ الخسارةِ والفـلاح، ومن لم يتكلم في هذا هل هو من الدين ومن سمـاع المتقين ومن أحوال المقربين والمقتصـدين ومن أعمال أهـل اليقين ومن طريق المحبين المحبـوبين ومن أفعال السـالكين إلى رب العالمين كـان كـلامـه فيـه من وراء وراء[1] بمنـزلـة من سئـل عن علم الكــلام المختلف فيـه، هل هـو محمود أو مـذموم فـأخذ يتكلم في جنس الكلام وانقسامـه إلى الاسم والفعل والحـرف، أو يتكلم في مدح الصمت أو في أن الله أباح الكلام والنطق وأمثال ذلك مما لا يمس المحل المشتبه المتنازع فيه.

• • •

وإذا عـرف هـذا فـاعلم أنـه لم يكن في القــرون الثـلاثــة المفضلة لا بـالحجاز ولا بـالشام ولا بـاليمن ولا بمصـر والمغـرب والعـراق وخراسـان من أهل الـدين والصلاح والـزهد والعبـادة من يجتمـع على مثل سمـاع المكاء والتصـديـة لا بـدف، ولا بكف، ولا بقضيب وإنما حدث هذا بعد ذلك في أواخر المائة الثانية فلما رآه الأئمة أنكروه.

فقال الشافعي رضي الله عنه: خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه (التغبير)[1] يصدون به الناس عن القرآن، وقال يزيد بن هارون[2] ما يغبر إلاَّ فاسق ومتى كان التغبير. وسُئِلَ عنهُ أحمد فقال أكرهه، هو محدث. قيل: أنجلس معهم قال: لا، وكذلك سائر أئمة الدين كرهوه، وأكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه، فلم يحضره مثل إبراهيم بن أدهم[3] ولا الفضيل بن

عياض[١] ولا معروف الكرخي[٢] ولا أبو سليمان الداراني[٣] ولا أحمد بن أبي الحواري[٤] ولا السري السقطي[٥] وأمثالهم. والذين حضروه من الشيوخ من المحمودين تركوه في آخر أمرهم وأعيان المشايخ عابوا أهله كما ذكر ذلك الشيخ عبد القادر[٦]

والشيخ أبو البيان[1] وغيرهما من الشيوخ.

●●●

وما ذكره الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه من إحداث الزنادقة[2] من كلام إمام خبير بأصول الإسلام فإنَّ هذا السماع لم يرغب فيه ويدع إليه في الأصل إلاَّ من هو متهم بالزندقة كابن الراوندي[3] والفارابي[4] وابن سينا[5] وأمثالهم كما ذكر أبو

عبد الرحمن السلمي[1] في مسألة السماع عن ابن الراوندي أنه قال: اختلف الفقهاء في السماع فأباحه قوم وكرهه قوم وأنا أوجبه أو قال آمر به فخالف إجماع العلماء في الأمر به وأبو نصر الفارابي كان بارعاً في الغناء الذي يسمونه (الموسيقا) وله فيه طريقة معروفة عند أهل صناعة الغناء وحكايته مع ابن حمدان[2] مشهورة[3] لما ضرب فأبكاهم ثم أضحكهم ثم نومهم ثم خرج.

وابن سينا ذكر في إشاراته في (مقامات العارفين) من الترغيب فيه، وفي عشق الصور، ما يناسب طريقة أسلافه الصابئين المشركين، الذين كانوا يعبدون الكواكب، والأصنام كأرسطو وشيعته من اليونان ومن اتبعه كبرقلس، وثامسطيوس، والإسكندر الأفروديسي وكان أرسطو وزير الإسكندر بن فيلبس المقدوني، الذي تؤرخ له اليهود والنصارى وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة. وأما ذو القرنين المذكور في القرآن الذي بنى (السد) فكان قبل هؤلاء بزمان طويل وأما الإسكندر الذي وزر له أرسطو فإنه

إنما بلغ بلاد خُـراسان[١] ونحـوها في دولـة الفرس لم يصـل إلى السد وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع وابن سينا أحـدث فلسفـة ركبها من كـلام سلفه اليـونان ومـما أخذه من أهـل الكلام المبتـدعين الجهميـة[٢] ونحـوهم وسلك طـريق المـلاحـدة الإسماعيلية[٣] في كثير من أمورهم العلمية والعملية ومزجه بشيء

من كلام الصوفية وحقيقته تعود إلى كلام إخوانه الإسماعيلية القرامطة الباطنية فإنَّ أهل بيته كانوا من أتباع الحاكم الذي كان بمصر وكانوا في زمانه ودينهم دين أصحاب (رسائل إخوان الصفا)(١) وأمثالهم من أئمة منافقي الأمم الذين ليسوا مسلمين، ولا يهود ولا نصارى وكان الفارابي قد حذق في حروف اليونان التي هي تعاليم أرسطو وأتباعه من الفلاسفة المشائين وفي أصولهم صناعة الغناء ففي هذه الطوائف من يُرَغِّبُ لله ويجعله مما تزكو به النفوس وترتاض به وتُهذبُ به الأخلاق.

● ● ●

وأما الحنفاءُ أهل ملة إبراهيم الخليل الذي جعله الله للناس إماماً وأهل دين الإسلام لا يقبل الله من أحد ديناً غيره، المتبعون لشريعة خاتم الرسل محمد ﷺ تسليماً فهؤلاء ليس منهم من يُرَغِّبُ في ذلك ولا يدعو إليه. وهؤلاء هم أهل القرآن والإيمان والهدى والرشاد والسعد والفلاح وأهل المعرفة والعلم واليقين والإخلاص لله والحب له والتوكل عليه والخشية منه والإنابة إليه.

● ● ●

ولكن قد حضره أقوام من أهل الإرادة وممن له نصيب في المحبة لما فيه من التحريك لهم، ولم يعلموا غائلته(٢) ولا عرفوا مغبته(٣) كما أدخل قوم من الفقهاء أهل الإيمان بما جاء به

الرسول ﷺ في أنواع من كلام الفلاسفة المخالف لدين الإسلام ظناً منهم أنه حق موافق ولم يعلموا غائلته، ولا عرفوا مغبته فإن القيام بحقائق الدين علماً وقولاً وعملاً وذوقاً وخبرة لا يستقل به أكثر الناس.

• • •

ولكن الدليل الجامع هو الاعتصام بالكتاب والسنة فإن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً. وقد قال تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(1).

وقال تعالى:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(2).

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (خَطَّ لَنا رسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّاً وخَطَّ خطوطاً عَنْ يمينِه وَشِمالِهِ ثم قال: هذا سبيل الله وهذه سُبُل على كُلِّ سَبِيلٍ مِنْها شَيْطَانٌ يَدْعُو إليه ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾(3).

ومن كان له خبرة بحقائق الدين وأحوال القلوب ومعارفها وأذواقها ومواجيدها عرف أن سماع المكاء والتصدية لا يجلب للقلب منفعة ولا مصلحة إلاّ وفي ضمن ذلك من الضلال والمفسدة ما هو أعظم منه فهو للروح كالخمر للجسد يفعل في النفوس أعظم ما تفعله حميا الكؤوس. ولهذا يورث أصحابه سكراً أعظم من سكر الخمر فيجدون لذة كما يجد شارب الخمر، بل يحصل لهم أكثر وأكبر مما يحصل لشارب الخمر، ويصدهم ذلك عن ذكر الله أعني الصلاة أعظم مما يصدهم الخمر ويوقع بينهم العدواة والبغضاء أعظم من الخمر حتى يقتل بعضهم بعضاً من غير مس بيد بل بما يقترن بهم من الشياطين فإنه يحصل لهم أحوال شيطانية بحيث تتنزل عليهم الشياطين في تلك الحال ويتكلمون على ألسنتهم كما يتكلم الجني على لسان المصروع إما بكلام من جنس كلام الأعاجم الذين لا يفقه كلامهم كلسان الترك أو الفرس أو غيرهم ويكون الإنسان الذي لبسه الشيطان عربياً لا يحسن أن يتكلم بذلك بل يكون الكلام من جنس كلام من تكون تلك الشياطين من إخوانهم وإما بكلام لا يعقل ولا يفهم له معنى وهذا يعرفه أهل المكاشفة شهوداً وعياناً وهؤلاء الذين يدخلون النار مع خروجهم عن الشريعة هم من هذا النمط فإن

الشياطين تلبس أحدهم بحيث يسقط إحساس بدنه، حتى إن المصروع يضرب ضرباً عظيماً وهو لا يحس، ولا يؤثر في بدنه فكذلك هؤلاء تلبسهم الشياطين، فتدخل بهم النار وقد تطير بهم في الهواء وإنما يلبس أحدهم الشيطان مع تغيب عقله كالمصروع وبالمغرب ضرب من الزُّط[1] يقال لأحدهم المصلي يلبسه الشياطين ويدخلها ويطير في الهواء ويفعل أشياء أبلغ مما يفعله هؤلاء وهم من الزط الذين لا خلاق لهم والجن تخطف كثيراً من الإنس وتغيبه عن أبصار الناس وتطير به في الهواء وقد باشرنا من هذه الأمور ما يطول وصفه وكذلك هؤلاء المتولهون المنتسبون إلى بعض الشيوخ إذا حصل لهم وجد سماعي عند سماع المكاء والتصدية منهم من يصعد في الهواء ومنهم من يدخل النار ويأخذ الحديد المحمى بالنار يضعه على بدنه وأنواع من هذا الجنس ولا تحصل لهم هذه الأفعال عند الصلاة ولا عند الذكر ولا عند قراءة القرآن لأن هذه عبادات شرعية إيمانية إسلامية نبوية محمدية تطرد الشياطين وتلك عبادات بدعية شركية شيطانية فلسفية تستجلب الشياطين.

● ● ●

وبالجملة فعلى المؤمن أن يعلم أن النبي ﷺ لم يترك شيئاً يقرب إلى الجنة إلاَّ وقد حَدَّث به ولا شيئاً يبعد عن النار إلاَّ وقد حدث به وأن هذا السماع لو كان مصلحة لشرعه الله ورسوله فإن الله يقول:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ... ﴾[2] الآية.

وإذا وجد السامع به منفعة لقلبه ولم يجد شاهد ذلك من كتاب الله ولا من سنة رسوله لم يلتفت إليه كما أن الفقيه إذا رأى قياساً لا يشهد له الكتاب والسنة لم يلتفت إليه.

● ● ●

وفصل النزاع في حكم مسألة السماع ثلاث قواعد من أهم قواعد الإيمان والسلوك فمن لم يبن عليها فبناؤه على شفا جرف هار.

(القاعدة الأولى): أن الذوق والحال والوجد هل هو حاكم أو محكوم عليه بحاكم آخر أو متحاكم إليه فهذا منشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة حيث جعلوه حاكماً يتحاكمون إليه فيما هو صحيح فاسد فجعلوه حكماً بين الحق والباطل فنبذوا الكتاب والسنة ولم يحكموا العلم والنصوص وحكموا الأذواق والحال والمواجيد فعظم الفساد وطمست معالم الإيمان والسلوك المستقيم والعجب أنهم دخلوا في الرياضات والمجاهدات والزهد ليتجردوا عن شهوات النفوس وحظوظها فانتقلوا من شهوات إلى شهوات أكبر منها ومن حظوظ إلى حظوظ أعظم منها وكان حالهم في الشهوات التي انتقلوا عنها أكمل خيراً من هؤلاء لأنهم لم يعارضوا بها العلم ولا قدموها على النصوص ولا جعلوها قربة وديناً، واقفون مع حظوظهم من الله، فانون بها عن مراد الله، وإنما زهدوا في حظ إلى حظ أعلا منه وتركوا شهوة بشهوة، فليتدبر اللبيب هذا في نفسه وفي غيره فكل ما خالف مراد الله الديني من العبد فهو حظه وشهوته ذوقاً كان أو حالاً أو وجداً أوْ لا أو صورة ونحو ذلك فمن قدمه على مراده فهو أسوأ حالاً ممن يعترف أن يعصيه ويحبه، وأن مراد الله أولى بالتقديم منه، وأنه ذنب تجب التوبة منه.

(القاعدة الثانية): أنه إذا وقع النزاع في حكم فعل من الأفعال أو حال أو ذوق هل هو صحيح أو فاسد أو حق أو باطل وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله من كتاب الله وسنة رسوله فهذا هو الأساس ومن لم يَبْنِ على هذا الأصل فعلمُه وسلوكُه ليس على شيء.

(القاعدة الثالثة): إذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شيء هل هو الإباحة أو التحريم فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته فإن كان مشتملا على مفسدة راجحة ظاهرة فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته، بل يقطع أن الشرع يحرمه لا سيما إذا كان طريقه مفضياً إلى ما يبغضه الله ورسوله فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر[١] لأنه يشوقُ النفسَ إلى المسكر الذي يشوقُها إلى المحرمات، ثم يبيح ما هو أعظم منها شوقاً للنفوس إلى المحرم بكثير، فإن الغناء كما قال ابن مسعود[٢]

هـو رقية الـزنا وقـد شاهـد الناس أنـه مـا عـانـاه صبـي إلَّا وفسـد ولا امرأة إلَّا وبغت ولا شاب ولا شيخ إلَّا وقع في محذور.

وقـال شيخ الإسـلام ابن تيميـة: فصـل الخـطاب في هـذا البـاب ينبغي أن ينظر في مـاهيـة الشيء ثم يـطلق عليـه التحـريم أو الكـراهة أو غيـر ذلك والغنـاء اسم يطلق على أشيـاء منها غنـاء الحجيج فإنهم ينشدون أشعاراً يصفون فيها الكعبة وزمزم والمقـام وغير ذلك فسماع تلك الأشعار مباح وفي معنى هؤلاء الغزاة فإنهم ينشدون أشعاراً يحـرضون بهـا على الغزو وفي هـذا المعنى إنشاد المتبـارزين للقتال وقـد قال الـرسـول ﷺ لحـاديه: «رويدَكْ سَـوْقـاً بالقوارير». وقال عبد الله بن رواحة يمدح النبـي ﷺ:

وفينـا رسـولُ اللَّهِ يتلو كتـابَـهُ ... إذا انشقَّ معروفٌ من الفجرِ ساطعُ
يبيتُ يُجافي جنبه عن فـراشِه ... إذا استثقلتْ بالمشركينَ المضاجعُ
أرانا الهدى بعـد العَمَى فقلوبُنا ... بهِ موقناتٌ أنَّ ما قـال واقعُ[1]

وروي عن النبـي ﷺ أنَّـهُ خَـرَجَ على أهــل الصّفـة وفيهم واحد يقرأ والباقي يستمعون فجلس معهم[2].

●●●

وقال الشيخ في موضع[3]: «ولكن تكلموا في الغناء المجرد عن آلات اللهو: هل هـو حرام أو مكـروه أو مباح؟ وذكـر أصحـاب أحمد لهم في ذلك ثلاثة أقوال وذكرنا عن الشافعي قولين ولـم يذكروا عن أبـي حنيفـة ومالـك في ذلك نـزاعاً. وذكـر زكريـا ابن يحيـى

الساجي[1] وهو أحد الأئمة المتقدمين من المائلين إلى مذهب الشافعي أنه لم يخالف من الفقهاء المتقدمين إلاَّ إبراهيم بن سعد[2] من أهل المدينة وعبيد الله بن الحسن العنبري[3] من أهل البصرة وما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي[4] وأبو القاسم القشيري[5] وغيرهما عن مالك وأهل المدينة في ذلك فغلط وإنما وقعت به لأن بعض أهل المدينة كان يحضر السماع إلاَّ أن هذا ليس قول أئمتهم وفقهائهم.

وقال شيخ الإسلام[1] أيضاً وجماع الأمر في ذلك أنه إذا كان الكلام في السماع وغيره، هل هو طاعة وقربة؟ فلا بد من دليل شرعي يدل على ذلك وإذا كان الكلام: هل هو محرم أو غير محرم؟ فلا بد من دليل شرعي يدل على ذلك إذ لا حرام إلاَّ ما حرمه الله ولا دين إلاَّ ما شرعه الله، والله تعالى سبحانه ذَمَّ المشركين على أنهم ابتدعوا في الدين ما لم يأذن به الله وأنهم حرموا ما لم يحرمه الله قال الله تعالى:

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ . . . ﴾[3] الآية.

قال أبو سليمان الداراني[4] إنه لتمر بي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلاَّ بشاهدين الكتاب والسنة وقال أيضاً ليس لمن أُلهم شيئاً من الخير أن يفعله حتى يسمع فيه بأثر فإذا سمع بأثر كان نوراً على نور وقال الجنيد[5]: علمُنا هذا مقيدٌ بالكتاب

والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا. وقال: سهل بن عبد الله التستري[1] كل وَجْدٍ لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل وقال: كل عمل على اقتداء فهو عذابٌ على النفس، وكل عمل بلا اقتداء فهو عيش النفس. وقال أبو عثمان النيسابوري[2]: من أمَّرَ السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّرَ الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة.

وقال أبو الفرج بن الجوزي[3]: اعلم أن سماع الغناء يجمع شيئين: (أحدهما): أن يُلْهِيَ القلب عن التفكر في عظمة الله تعالى والقيام بخدمته. (والثاني): أن يُميلَه إلى اللذات العاجلة ويدعو إلى استيفائها من جميع الشهوات الحسية ومعظمها النكاح وليس تمام لذته إلاَّ في المتجددات ولا سبيل إلى كثرة المتجددات من الحِلّ فلذلك يحث على الزنا فبين الغناء والزنا تناسب من جهة أن الغناء لذة الروح والزنا أكبر لذات النفس.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في موضع من كلامه في السماع، وأما أبو حنيفة ومالك والثوري ونحوهم فهم أعظم كراهة وإنكاراً لذلك من الشافعي وأحمد.

وقال في موضع آخر ولم يحضره مثل إبراهيم بن أدهم(١) ولا الفضيل بن عياض(٢) ولا معروف الكرخي(٣) ولا السري السقطي(٤) ولا أبو سليمان الداراني(٥) ولا مثل الشيخ عبد القادر(٦) والشيخ عدي(٧) والشيخ أبي البيان(٨) والشيخ حياة(٩) وغيرهم بل في كلام طائفة من هؤلاء مثل الشيخ عبد القادر وغيره النهي عنه وكذلك أعيان المشايخ.

● ● ●

وقد حضره من المشايخ جماعة وشرطوا المكان والإمكان والخلان والشيخ الذي يحرس من الشيطان وأكثر الذين حضروه من المشايخ الموثوق بهم رجعوا عنه في آخر عمرهم كالجنيد(١٠)

فإنه كان يحضره وهو شاب وتركه في آخر عمره، وكان يقول من تَكَلَّفَ السماع فُتِنَ به ومن صادف السماع استراح به فقد ذم من يجتمع له ورخص فيمن يصادفه من غير قصد ولا اعتماد للجلوس له.

● ● ●

وسبب ذلك أنه مجمل ليس فيه تفصيل فإن الأبيات المتضمنة لذكر الحب والوصل والهجر والقطيعة والشوق والصبر على العَذْل[1] واللوم ونحو ذلك هو قول مجمل يشترك فيه محب الرحمن ومحب الأوثان ومحب الصلبان ومحب الإخوان ومحب الأوطان ومحب النسوان ومحب الصبيان فقد يكون فيه منفعة إذا هيج القاطن أثار الساكن وكان ذلك مما يحبه الله ورسوله، لكن تكون فيه مضرة راجحة على نفعه كما في الخمر والميسر فإن فيهما إثماً كبيراً ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما[2] فلهذا لم تأتِ به الشريعة، فإن الشريعة لم تأتِ إلَّا بالمصلحة الخالصة أو الراجحة، وأما ما تكون مفسدته غالبة على مصلحته فهو بمنزلة من يأخذ درهماً بدينار أو يسرق خمسة دراهم يتصدق منها بدرهمين وذلك أنه يهيج الوجد المشترك فيثير من النفس كوامن تضره آثارها ويغذي النفس ويقوتها به فتعتاض به عن سماع القرآن حتى لا يبقى فيها محبة لسامع القرآن ولا يلتذ به ولا يستطيبه بل قد يبقى في النفس بغض لذلك واستثقال به كمن يستثقل نفسه بتعلم التوراة والإنجيل وعلوم أهل الكتاب والصابئين[3] واستفادة

العلم والحكمة منها فأعرض بذلك عن كتاب الله وسنّة رسوله إلى أشياء أخر يطول ذكرها.

فلما كان هذا السماع لا يعطي بنفسه ما يحبه الله ورسوله من الأحوال والمعارف بل قد يصد عن ذلك ويعطي ما لا يحبه الله ورسوله بل ما يبغضه الله ورسوله لم يأمر الله به ولا رسوله ولا سلف الأمة ولا أعيان مشايخها.

والصوت يؤثر في النفس بحسب الأوقات تارة فرحاً وتارة حزناً وتارة غضباً وتارة رضاً، وإذا قوِيَ السكرُ بصوت اللذة المطربة من غير تمييز كما يحصل للنفس إذا سكرت بالصور، والجسدِ إذا سكر بالطعام والشراب، فإن السكر هو الطرب الذي يورث لذة بلا عقل، فلا تقوم منفعة تلك اللذة بما يحصل من غيبة العقل الذي صد عن ذكر الله وعن الصلاة وأورث العداوة والبغضاء.

● ● ●

وأما الرقص فلم يأمر الله عز وجل به ولا رسوله، ولا أحد من الأئمة بل قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾(1).

والرقص شيء من هذا وقال تعالى:

﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾(2).

وقال تعالى:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾[1].

أي بسكينة ووقار.

• • •

وإنما عبادة المسلمين الركوع والسجود بل الزَّفْنُ والرقص في الطريق لم يأمر الله به ولا رسوله ولا أحد من سلف الأمة بل أمروا في الصلاة بالسكينة والوقار ولو ورد على الإنسان حال يُغلب فيها حتى يخرج إلى حالة خارجة عن المشروع، وكان ذلك الحال بسبب مشروع كسماع القرآن الكريم ونحوه لسلم إليه ذلك كما تقدم، فأما الذي إذا تكلفه من الأسباب ما لم يؤمر به مع علمه بأنه يوقعه فيما لا يصلح له فهو بمنزلة من شرب الخمر مع علمه أنها تسكره، وإذا قال: ورد عليَّ حالٌ وأنا سكران قيل له: إذا كان السبب محظوراً لم يكن صاحبه معذوراً فهذه الأحوال الفاسدة من كان فيها صادقاً فهو مبتدع ضال من جنس خفر[2] التتر وأعوان الظلمة من ذوي الأحوال الفاسدة الذين ضاهوا عبادة النصارى والمشركين ببعض ما لهم من الأحوال ومن كان كاذباً فهو منافق ضال.

• • •

وقد استدل قوم على إباحة السماع بأمور ألخصها لك:

(منها) أنه مُستلَذٌّ طيبٌ تلتذ به النفوس وتستريح إليه، وأن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب بل بعض الصغار لا ينام حتى تحدو له القائمة بأمره والإبل تقاسي تعب السير ومشقة الحمولة فيهون عليها بالحداء.

(ومنها) أن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه وزيادة في خلقه، وقد يستدلون عليه بقوله تعالى:

﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾[1].

وبأن الله تعالى ذم الصوت الفظيع فقال:

﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾[2].

(ومنها) أن الله وصف أهل الجنة أنهم في روضة يحبرون[3] وأن ذلك هو السماع الطيب، فكيف يكون حراماً وهو في الجنة.

(ومنها) ما ثبت أن الله تعالى ما أذِنَ لشيء كأَذَنه أي كاستماعه لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن[4].

(ومنها) أن أبا موسى الأشعري استمع النبي ﷺ لصوته وأثنى على حسن الصوت وقال: (لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود)[5]، وقال له أبو موسى: لو أعلم أنك استمعت لحبرته

لك تحبيراً[1] أي زينته وحسنته.

(ومنها) قوله ﷺ: زينوا القرآن بأصواتكم[2]. وقوله: ليس منا من لم يتغن بالقرآن[3]. والصحيح أنه من التغني وهو تحسين الصوت به كذا ذكره العلّامة ابن القيم وصححه ويعضده ما فسره الإمام أحمد فقال: يحسن صوته ما استطاع.

(ومنها) أن النبي ﷺ أقر عائشة على غناء القينتين يوم العيد وقال لأبي بكر: «دعهما فإن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا أهل الإسلام»[4].

(ومنها) أنه ﷺ أذن في العرس بالغناء وسماه لهواً[5].

(ومنها) أنه سمع رسول الله ﷺ الحداء وأذن فيه[1].

(ومنها) أنه كان يسمع إنشاد الصحابة وكانوا يرتجزون بين يديه في حفر الخندق[2].

نحن الذين بايعوا محمداً   على الجهاد ما بقينا أبدا

ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة[1] وحدا به الحادي في منصرفه من خيبر[2] فجعل يقول:

والله لولا اللَّهُ ما اهتدَيْنا ولا تَصدَّقْنَا ولا صَلَّينا
فأنزِلَنْ سكينةً علينا وثَبِّتِ الأقدام إن لاقينا
إن الذين قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

فدعا لقائله.

(ومنها) أنه سمع قصيدة كعب بن زهير وأجازه[3].

(ومنها) أنه استنشد الأسود بن سريع قصائد حمد بها ربه[١] واستنشد من شعر أمية بن أبي الصلت مائة قافية[٢]، وأنشد الأعشى شيئاً من شعره فسمعه[٣].

(ومنها) أنه صدق لبيداً في قوله[٤]:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

ودعا لحسان أن يؤيده الله بروح القدس[1] ما دام ينافح عنه وكان يعجبه شعره، وقال له: اهجهم وروح القدس معك، وأنشدت عائشة رضي الله عنها قول أبي كثير الهذلي.

وإذا نظرت إلى أسِرَّة وجهه   بَرَقَتْ كبرق العارض المتهلل

وقالت أنت أحق بهذا البيت فسُرَّ بقولها.

(ومنها) أنهم ادعوا أنه رخص فيه عبد الله بن عمر وعبد الله بن جعفر وأهل المدينة وبأن كذا وكذا وليٍ لله حضروه وسمعوه، فمن حرمه فقد قدح في هؤلاء السادة القدوة الأعلام.

(ومنها) أن إجماع العلماء منعقد على إباحة أصوات الطيور المطربة الشجية فلذة سماع صوت الآدمي أولى بالإباحة أو مساوية، وبأن السماع يحدو روح السامع وقلبه إلى نحو محبوبه، فإن كان محبوبه حراماً كان السماع معيناً له على الحرام وهو حرام في حقه، وإن كان مباحاً كان السماع في حقه مباحاً وإن كانت محبته رحمانية كان السماع في حقه قربة وطاعة، لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويهيجها وبأن الْتِذاذ الأذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن والشم بالروائح الطيبة

والذوق بالطعم الطيب فإذا كان هذا حراماً كانت هذه اللذات والإدراكات محرمة.

• • •

والجواب عن ذلك وبالله التوفيق فيما تقدم من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية والعلاّمة ابن القيم وغيرهما كفاية، وما ذكر حيدٌ عن المقصود ورَوَغانٌ عن محل النزاع فإن جهة كون الشيء مستلذاً للحاسة ملائماً لها لا يدل على إباحته ولا تحريمه ولا كراهته ولا استحبابه، فإن هذه اللذة تكون في أحكام التكليف الخمسة فكيف يستدل بها على الإباحة من يعرف شروط الدليل ومواقع الاستدلال. وهل هذا إلاَّ بمنزلة من يستدل على إباحة الزنا بما يجد به فاعله من اللذة ولذته لا ينكرها ذو طبع سليم، وهل يستدل بوجود اللذة الملائمة على حل اللذيذ الملائم أحد؟ وهل خلت غالب المحرمات من اللذات؟ وهل أصوات المعازف التي صح عن النبي ﷺ تحريمها وأنَّ في أمته من يستحلها بأصح الأسانيد[1]. وأجمع أهل العلم على تحريم بعضها، وقال بعضهم بتحريم جملتها، وقد حكى ابن الصلاح[2] الإجماع على تحريم

الغناء مع الدف والشبابة يعني إذا كان معه آلة لهو، وهل في التذاذ الإبل والطفل بالصوت الطيب دليل شرعي من إباحة أو تحريم.

وأعجب من هذا الاستدلال على الإباحة بأن الله تعالى خلق الصوت الطيب وهو زيادة نعمة منه لصاحبه، فيقال والصورة الحسنة الجميلة أليست زيادة في النعمة والله تعالى خالقها ومُعْطي حسنها أفيدل ذلك على إباحة التمتع بها والالتذاذ بها على الإطلاق، وهل هذا إلاَّ مذهب أهل الإباحة الجارين على رسوم الطبيعة، ولعل في ذم الله لصوت الحمار ما يدل على إباحة الأصوات المطربات بالنغمات الموزونات والألحان اللذيذات من الصور المستحسنات بأنواع القصائد المستحسنات بالدفوف والشبابات هذا من المضحكات المعجبات. وأعجب من هذا الاستدلال على الإباحة بسماع أهل الجنة أنهم في روضة يحبرون[1]. فما يخاف صاحب هذا الاستدلال، فإن هذا كمن يستدل على إباحة الخمر بأن في الجنة خمراً[2] وعلى إباحة لبس

الحرير بأن لباس أهل الجنة الحرير[1] وعلى حل أواني الذهب[2] والفضة[3] والتحلي بها للرجال، فإن هذا كله مباح لأهل الجنة.

فإن قيل قام الدليل على تحريم هذا ولم يقم على تحريم السماع، قيل هذا الآن استدلال آخر على الاستدلال على إباحته لأهل الجنة، فعلم أن استدلالك بإباحته لأهل الجنة استدلال باطل وقولك لم يقم دليل على تحريم السماع فيقال أي السماعات تعني وأي المسموعات تريد؟ فإن منهما المحرم والمكروه والمباح والواجب والمستحب فعيّنْ نوعاً يقع الكلام فيه نفياً وإثباتاً.

فإن قلت سماع القصائد ما مُدحَ اللّهُ به ورسولُه وكتابُه وهُجِيَ به أعداؤه فهذه لم يزل المسلمون يروونها ويسمعونها ويدرسونها، وهي التي سمعها الرسول وأصحابه وأثاب عليها وحرض حسان عليها، وهي التي غرّت أصحاب السماع الشيطاني فقالوا تلك قصائد، ويكفي هذا والسنّة كلام والبدعة كلام والتسبيح كلام والغيبة كلام، ولكن هل سمع رسول الله ﷺ وأصحابه سماعكم هذا المشتمل على قريب من مائة مفسدة، ونظير هذا ما استدلوا به على أن الرسول استحسن الصوت الحسن وأذن فيه كما تقدم من حديث أبي موسى الأشعري[4]

وغيره فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان والمُرْدان وغيرهم بالغناء المقرون بالدفوف بالصنوج والشبابات والأوتار وغير ذلك من المعازف وذكر القدود والثغور والنهود والخصور ووصف فواتر العيون وسوادها وسواد الشعور ومحاسن الشباب وحمرة الخدود وذكر الوصل والصد والتجني والهُجران والعتاب والاستعطاف والاشتياق والقلق والفراق وما أشبه ذلك مما هو أفسد للقلب من سكر الخمر، وأي نسبة لسكر يوم ونحوه إلى سكرة العشق التي لا يستفيق صاحبها إلاَّ في عسكر الهالكين أسيراً قتيلاً حزيناً.

وهل تقاس سكرة الشراب إلى سكرة الأرواح بالسماع، فإن نازع منازع في سكر السماع وتأثيره في العقول والأرواح خرجوا عن الذوق والحس فظهرت مكابرة القوم فكيف يحمي الطبيبُ المريضَ عما يشوش عليه صحته ويبيح له ما فيه أعظم السقم والكلام مع من وَجَد لا من فَقَد، وأعجب من هذا من استدل على إباحة السماع المركب من الهيئة الاجتماعية اجتماع البنتين الصغيرتين وهما دون البلوغ عند امرأة صبية في يوم عيد وفرح بأبيات للعرب في وصف الشجاعة والحروب ومكارم الأخلاق والشيم فأين هذا من هذا؟ والعجب أن هذا من أكبر الحجج عليهم، فإن الصِّدِّيق سمىٰ ذلك مزمار الشيطان وأقره على هذه التسمية مرخصاً فيه لجويرتين غير مكلفتين[1] ولا مفسدةَ في إنشاده ولا في استماعه، أفيدلّ هذا على إباحة ما يفعلونه من السماع اليوم؟ وأعجبُ من هذا كله الاستدلالُ على إباحته بما سمعه الرسول من الحدْوِ المشتمل على الحق والتوحيد وهل حرم أحدٌ مطلق الشعر وقوله واستماعه؟ وأعجب استدلالِهِمْ بإباحته على إباحة أصوات الطيور اللذيذة، وهل هذا إلاَّ من جنس قياس

الذين قالوا: إنما البيع مثل الربا وأين أصوات الطيور إلى نغمات النسوان والمردان والأوتار والعيدان والغناء منهن بما يحدو الأرواح والقلوب إلى مواصلة كل محبوبة ومحبوب، وأين الفتنة بمن هو من جنسك إلى الفتنة بصوت القُمْريّ والبُلْبل والهَزار والشحرور ونحوها، وأعجب من هذا من قال: إنه من أنكره فقد أنكر على كذا كذا وليّ لله فحجة عامية، نعمْ يُنكر أولياءُ الله على أولياءِ الله، فقد أنكر عليهم من أولياء الله من هو أكثر منهم عدداً وأعظم عند الله وعند المؤمنين وقد تقاتل أولياء الله في صفين[1] بالسيوف ولما سار بعضهم إلى بعض كان يقال سار أهل الجنة إلى الجنة وكون وليّ الله يرتكب المكروه أو المحظور متأولاً أو عاصياً لا يمنع ذلك الإنكار عليه ولا يخرجه عن أصل ولايته لله. وهيهات هيهات أن يكون أحد من أولياء الله المتقدمين حضر هذا السماع المُحْدَث المشتمل على هذه الهيئة التي تفتن القلوب أعظم فتنة.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في موضع من كلامه: قال إسحاق بن عيسى الطباع[2]: سألت مالكاً عما يترخص فيه أهل المدينة من الغناء فقال: إنما يفعله عندنا الفساق، وهذا النص عن مالك معروف في كتب أصحاب مالك مشهور وهم أعرف

بمذهبه وأضبط ممن ينقل عنه الغلط وعن أهل المدينة من طائفة بالمشرق لا علم لهم بمذاهب الفقهاء، ومن ذكر عن مالك أنه ضرب بعود فقد افترى عليه وإنما نبهت على هذا لأن فيما جمعه أبو عبد الرحمن السلمي[1] ومحمد بن طاهر المقدسي[2] في ذلك حكايات وآثاراً يظن من لا خبرة له بالعلم وأحوال السلف أنها صدق، وكان الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي فيه من الخير والزهد والدين والتصوف ما يحمله على أن يجمع من كلام الشيوخ والآثار التي توافق مقصوده كل ما يجده ولهذا يوجد في كتبه من الآثار الصحيحة والكلام ما ينتفع به في الدين ويوجد فيها من الآثار السقيمة والكلام المردود ما يضر من لا خبرة له وبعض الناس توقف في روايته حتى إن البيهقي كان إذا روى عنه يقول حدثنا أبو عبد الرحمن من أصل سماعه، وأكثر الحكايات التي يرويها أبو القاسم القشيري[3] صاحب الرسالة عنه فإنه كان أجمع شيوخه لكلام الصوفية ومحمد بن طاهر له فضيلة جيدة في معرفة الحديث ورجاله وهو من حفاظ وقته، لكنْ كثير من المتأخرين أهل الحديث وأهل الزهد وغيرهم إذا صنفوا في بابٍ ذكروا ما روي من غث وثمين ولم يميزوا بين ذلك. اهـ كلامه.

● ● ●

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في موضع آخر: ذكر من صنف في السماع ومن روى فيه من الأحاديث الموضوعة والمكذوبة. ثم قال: وكثير من المتأخرين أهل الحديث وأهل الزهد وأهل الفقه والتصوف وغيرهم إذا صنفوا في باب ذكروا

ما روي فيه من غث وثمين ولم يميزوا ذلك، كما يوجد في كثير ممن يصنف في الأبواب مثل المصنّفين في فضائل الشهور والأوقات[١] وفضائل الأعمال والعبادات[٢] وفضائل الأشخاص[٣] وغير ذلك من الأبواب[٤] مثل ما صنف بعضهم في فضائل صيام

رجب وغيره، وفي فضائل صلوات الأيام والليالي صلاة يوم الأحد وصلاة يوم الاثنين والثلاثاء وصلاة أول جمعة في رجب والتي أول رجب ونصف شعبان وإحياء ليلة العيدين وصلاة يوم عاشوراء وكل هذا كذب باتفاق أهل العلم بالحديث.

وأجود حديث روي عن النبي ﷺ في صيام رجب ما رواه ابن ماجه[١] (عن النبي ﷺ أنه نهى عن صيام رجب) وقد ثبت بالإسناد الصحيح عن عمر بن الخطاب أنه كان يضرب أيدي الناس في رجب حتى يفطروا ويقول لا تشبهوه برمضان[٢] وكذا

كره إفراده بالصوم غير واحد من السلف والأئمة[١].

وأجود ما يروى من هذه الصلوات حديث صلاة التسبيح وقد رواه أبو داود[٢] والترمذي[٣] وغيرهما، ومع هذا فلم يقل به أحد من الأئمة الأربعة بل الإمام أحمد ضعف الحديث وقال: لا يصح ولم يستحب هذه الصلاة. وأما ابن المبارك والمنقول عنه فشيء مثل الصلاة المرفوعة، فإن تلك فيها قعدة طويلة بعد السجدة الثانية وهذا يخالف الأصول فلا يجوز أن يثبت بمثل هذا الحديث ومن تدبر الأصول علم أنه موضوع.

وأما سائر هذه الأحاديث فإنها كلها أحاديث موضوعة مكذوبة باتفاق أهل المعرفة مع أنها توجد في مثل كتاب أبي طالب[٤] ....

وكتاب أبي حامد[1] وكتاب الشيخ عبد القادر[2]، وتوجد في مثل أمالي أبي القاسم بن عساكر[3] وفيما صنفه

أبـو حفص بـن شاهين[١] وعبـد العـزيـز الكنـاني[٢] وأبـو علي بن البنـاء[٣] وأبو الفضـل بن ناصـر[٤] وغيرهم، وكـذلـك أبـو الفـرج ابن الجوزي[٥] ذكر مثل هذا في كتاب فضائل الشهور، ويذكر في الموضوعات[٦] أنه كذب موضوع.

● ● ●

والـذين جمعوا الأحـاديث في الـزهـد والـرقـائق يـذكـرون مـا روي في هذا البـاب ومن أجلّ مـا صنفـ في هذا البـاب كتاب الزهد لعبد الله بن المبارك[٧]، وفيه أحاديث واهية، وكذلك كتاب

الـزهد لهنـاد بن السري[١] ولـوكيع[٢] وكـذلـك الـزهـد لأسـد بن موسى[٣] وغيرهم[٤] وأجود ما صنف في ذلك كتاب الزهد لـلإمام

أحمد[1] لكنه مرتب على الأسماء وزهد ابن المبارك على الأبواب، وهذه الكتب يذكر فيها زهد الأنبياء والصحابة والتابعين.

ثم إن المتأخرين على صنفين منهم من ذكر زهد المتقدمين والمتأخرين كأبي نعيم في الحلية[2] وأبي الفرج في صفوة

الصفوة[١].

• • •

ومنهم من اقتصر على ذكر المتأخرين من حين حدث اسم الصوفية كما فعل أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية[٢] وصاحبه أبو القاسم القشيري في رسالته[٣] ثم الحكايات التي يذكرها هؤلاء ونحوهم كابن خميس الموصلي[٤] وأمثاله يذكرون حكايات مرسلة بعضها صحيح وبعضها باطل قطعاً والله أعلم.

وقال الشيخ رحمه الله، والمقصود هنا أن المذكور عن سلف الأمة وأئمتها من المنقولات ينبغي للإنسان أن يميز بين صحيحه وسقيمه كما ينبغي مثل ذلك في المعقولات والنظريات وكذلك في الأذواق والمواجيد والمكاشفات والمخاطبات، فإن كل صنف من هذه الأصناف الثلاثة فيها حق وباطل فلا بد من التمييز بين هذا وهذا وجميع ذلك أن ما وافق كتاب الله وسنة رسوله الثابتة عنه وما كان عليه أصحابه فهو حق، وما خالف ذلك فهو باطل فإن الله تعالى يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ... ﴾[1] الآية.

● ● ●

وأما من زعم أن الملائكة أو الأنبياء تحضر سماع المكاء والتصدية محبة له ورغبة فيه فهو كاذب مفترٍ، بل إنما تحضره الشياطين وهي التي تتنزل عليهم وتنفخ فيهم كما روى الطبراني[2] وغيره عن ابن عباس مرفوعاً، إن الشيطان قال: يا رب اجعل لي بيتاً، قال: بيتك الحمام، قال: اجعل لي قرآناً،

قال: قرآنك الشعر قال: اجعل لي مؤذناً، قال: مؤذنك المزمار، وقد قال الله تعالى مخاطباً للشيطان:

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾(1).

وقد فسر ذلك بصوت الغناء. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما نَهَيْتُ عن صَوْتَيْنِ أحْمَقَيْنِ فاجِرَيْنِ صَوْتِ لَهوٍ ولَعِبٍ، ومَزَامِيْرِ الشيطان وصَوْتِ لطم خدود وشَقِّ جُيوبٍ ودعاء بدعوى الجاهلية»(2).

وقد كوشف جماعات من أهل المكاشفات بحضور الشياطين في مجامع السماعات الجاهلية ذات المكاء والتصدية وكيف يدور الشيطان عليهم حتى يتواجدوا الوجد الشيطاني حتى إن بعضهم صار يرقص فوق رؤوس الحاضرين، ورأي بعض المشايخ المكاشفين أن شيطانه قد حمله حتى رقص به، فلما صرخ شيطانه هرب وسقط ذلك الرجل، وهذه الأمور لها أسرار وحقائق لا يشهدها إلاَّ أهل البصائر الإيمانية والمشاهد الإيقانية، ولكن من اتبع ما جاءت به الشريعة وأعرض عن السبل المبتدعة

فقد حصل له الهدى وخير الدنيا والآخرة، وإن من لم يعرف حقائق الأمور فهو بمنزلة من سلك السبيل إلى مكة خلف الدليل الهادي فإنه يصل إلى مقصوده ويجد الزاد والماء في مواطنه وإن لم يعرف كيف حصل ذلك وسببه ومن سلك خلف غير الدليل الهادي كان ضالاً عن الطريق، فإما أن يهلك وإما أن يشقى مدة ثم يعود إلى الطريق، والدليل الهادي هو الرسول الذي بعثه الله إلى الناس بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وهادياً إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، وآثار الشيطان تظهر على أهل السماع الجاهلي مثل الإزباد والإرغاء والصراخات المنكرة ونحو ذلك مما يضارع أهل الصرع الذين يصرعهم الشيطان وكذلك يجدون في نفوسهم من ثوران مراد الشيطان بحسب الصوت إما وجد في الهوى المذموم وإما غضب وعدوان على من هو مظلوم وإما لطم وشق ثياب وصياح كصياح المحزون المحروم إلى غير ذلك من الآثار الشيطانية التي تعتري أهل الاجتماع على شرب الخمر إذا سكروا بها، فإن السكر بالأصوات المطربة قد يصير من جنس السكر بالأشربة المطربة فتصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة وتمنع قلوبهم حلاوة القرآن وفهم معانيه واتّباعه فيصيرون مضارعين للذين يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله ويوقع بينهم العداوة والبغضاء حتى يقتل بعضهم بعضاً بأحواله الفاسدة الشيطانية كما يقتل العائن من أصابه بعينه، ولهذا قال من قال من العلماء: إن هؤلاء يجب عليهم القَوَد[1] والدية إذا عرف أنهم قتلوا بالأحوال الفاسدة لأنهم ظالمون وهم إنما يغتبطون بما ينفذونه من مراداتهم

المحرمة كما يغتبط الظلمة المسلطون. ومن هذا الجنس حالُ فقراء الكافرين والمبتدعين والظالمين، فإنهم قد يكون لهم زهد وعبادة وهمة كما يكون للمشركين وأهل الكتاب وكما كان للخوارج[1] المارقين الذين قال فيهم النبي ﷺ: «يحقِر أحدُكم صلاتَه مع صلاتِهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم»[2] الحديث، وقد يكون لهم مع ذلك أحوال باطنة كما يكون لهم مملكة ظاهرة، فإن سلطان الباطن مضاهٍ لسلطان الظاهر ولا يكون من أولياء الله إلَّا من كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون وما فعلوه من الإعانة على الظلم يستحقون العقاب عليه بقدر الذنب، وباب القدرة والتمكن ظاهراً وباطناً ليس مستلزماً لولاية الله بل قد يكون ولي الله متمكناً ذا سلطان وقد يكون مستضعفاً إلى أن ينصره الله وقد يكون عدو الله مستضعفاً وقد يكون مسلطاً إلى أن ينتقم الله منه فخُفراءُ السر في الباطن من جنس التتر في الظاهر، هؤلاء في العُبّاد بمنزلة هؤلاء في الأجناد، وأما الغلبة فإن الله قد يُديل الكافرين كما كان يكون لأصحاب رسول الله ﷺ مع عدوهم، لكن العاقبة للمتقين فإن الله يقول:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾[1].

وإذا كان في المسلمين ضعف وكان العدو مستظهراً عليهم كان ذلك لسبب ذنوبهم وخطاياهم، إما لتفريطهم في أداء الواجبات باطناً وظاهراً، وإما لعداواتهم بتعدي الحدود باطناً وظاهراً قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[4].

وقـال الشيخ في مـوضع آخـر، وأما اتخـاذ التصفيق والغناء والضرب بالدفوف والنفخ في الشبابـات والاجتماع على ذلـك ديناً وطريقاً إلى الله وقربة فهذا ليس من دين الإسلام وليس مما شرعـه لهم نبيهم محمد ﷺ ولا أحد من خلفـائه ولا استحسن ذلـك أحد من أئمـة المسلمين بل ولم يكن أحـد من أهل الـدين يفعل ذلـك على عهـد رسول الله ﷺ ولا عهـد أصحابـه ولا تابعيهم بـإحسـان ولا تـابعي التابعين بـل لم يكن أحد من أهـل الدين من الأعصـار الثلاثة لا بـالحجاز ولا بـالشام ولا بـاليمن ولا العراق ولا خـراسان ولا المغرب ولا مصر يجتمع على مثل هـذا السماع، وإنمـا ابتدع في الإسلام بعد القرون الثلاثة ولهذا قـال الشافعي لمـا رأى ذلك خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة.

● ● ●

وسئـل شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمـه الله عن رجـل يحب السماع والرقص فأنكر عليه رجل فقال هذه الأبيات:

أَنْكَروا الرقص ثم قالوا حـرام ... فعليهم من أجـلِ ذاكَ سـلامُ
اعْبـد الله يـا فقيـه، وصـلِّ ... والزمِ الشرعَ فـالسماعُ حـرامُ
بـل حرامٌ عليـكَ، ثم حـلالٌ ... عنـد قـومٍ أحـوالهم لا تـلامُ
مثلُ قومٍ صفَـوْا وبان لهم منْ ... جـانبِ الـطور جـذوةٌ وكـلامُ
فـإذا قُـوبـلَ السمـاعُ بلهـوٍ ... فحـرامٌ على الجميـعِ حـرامُ

● ● ●

أجـاب الحمد لله رب العـالمين، هذا الشعـر يتضمن منكراً من القول وزوراً، بل أوله يتضمن مخالفة الشريعـة، وآخره يفتـح باب الزندقة والإلحاد، المخالفة للحقيقة الإلَهيـة الدينيـة النبويـة. وذلك أن قول القائل: (مثل قوم صفوا وبان لهم من جـانب الطور جذوة وكلام) يتضمن تمثيل هؤلاء بموسى بن عمران، الذي نودي من جانب الطور ولما رأى النار.

﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[1].

• • •

وهذا قول طائفة من الناس يسلكون طريق الرياضة والتصفية ويظنون أنهم بذلك يصلون إلى أن يخاطبهم الله كما خاطب موسى بن عمران وهؤلاء ثلاثة أصناف.

• • •

صنف يزعمون أنهم يخاطبون بأعظم مما خوطب به موسى بن عمران كما يقول ذلك من يقوله من أهل الوحدة والاتحاد القائلين بأن الوجود واحد كصاحب الفصوص[2] وأمثاله.

فإنَّ هؤلاء يدَّعون أنهم أعلى من الأنبياء وأن الخطاب الذي يحصل لهم من الله أعلى مما يحصل لإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد. ومعلوم أن هذا الكفر أعظم من كفر اليهود والنصارى الذين يفضلون الأنبياء على غيرهم لكن يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض.

والنوع الثاني من يقول إن الله يكلمه مثل كلام موسى بن عمران كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة ومتصوفتهم الذين يقولون إن تكليم موسى فيض فاض على قلبه من العقل الفعال ويقولون إن النبوة مكتسبة.

• • •

والنوع الثالث الذين يقولون إن موسى أفضل لكن صاحب الرياضة قد يسمع الخطاب الذي سمعه ولكن موسى مقصود بالتكليم دون هذا كما يوجد هذا في أخبار صاحب (مشكاة

الأنــوار)[١] وكـذلــك سلك مسلكـه صـاحب (خلع النعلين)[٢] وأمثالهما.

• • •

وأما قولـه في أول الشعر لمن يخـاطبه (إلـزم الشرع يـا فقيه وصلٍ) يشعر بأنك أنت تبـع الشرع وأمـا نحن فلنا إلى الله طـريق غير الشرع ومن ادعى أن له إلى الله طريقاً يوصله إلى رضـوان الله وكرامته وثوابه غير الشريعة التي بعث الله بها رسوله فإنه أيضاً كافر يستتـاب فـإن تـاب وإلاَّ ضـربت عنقـه كـطائفـة أسقـطوا التكليف وزعموا أن العبد يصل إلى الله بلا متابعة الرسل وطائفة يـظنون أن الخواص من الأولياء يستغنون عن متابعـة محمد ﷺ كمـا استغنى الخضر عن متابعـة موسى وجهـل هؤلاء أن موسى لم يكن مبعـوثاً إلى الخضر ومحمد ﷺ رسول إلى كل أحد ظاهـراً وباطنـاً مع أن قضية الخضر لم تخالف شريعة موسى بـل وافقتها ولكن الأسبـاب المبيحة للفعل لم يكن موسى علمها فلمـا علمها تبين أن الأفعـال توافق شريعته لا تخالفها[٣].

وسئـل شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمـه الله عن مؤذن يصعـد إلى المأذنة ينشد أبياتـاً يذكـر فيها الفـراق والبين وتفرق الأحبـاب فأنكر عليه رجل فقال له لا تفعل هذا وعليـك بالتسبيـح والتحميد والقصائد الربانية فهل أصاب أم لا؟

أجـاب رضي الله عنه: الحمد لله نعم يُنهى المؤذن أن ينشد

الأبيات التي هي من جنس النياحـة والمراثي وكـذلك مـا كان من جنس الغـزل فإن في ذلـك مفاسـد كثيرة وليس ذلـك من ذكـر الله المشروع للمؤذن ولا بأس بالآيات المتضمنة لذكر الآيات والأخبار والتوبة والاستغفار[1] والله أعلم.

● ● ●

نافع إن شاء الله لمن تدبره في قوله تعالى:

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1].

قال العلماء من المفسرين والنحاة[2] معناه الزموا واتبعوا دين الله الذي خلق الناس له ولهذا نصب على المصدر ومعنى ذلك فطر الله الناس على ذلك فطرة وفطر الناس عليها أي لها وهذه الفطرة أضافها الله إليه إضافة مدح لا إضافة ذم فعلم أنها فطرة محمودة لا مذمومة يبين ذلك قوله:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

ولهذا نصب على المصدر الذي دل عليه الفعل الأول عند سيبويه وأصحابه فدل على أن إقامة الوجه للدين حنيفاً هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، مثل قوله كتاب الله عليكم وسنة الله فهو عندهم منصوب بفعل مضمر لازم إضمار دل عليه الفعل المتقدم كأنه قال: كتب الله عليكم وسن الله لكم وكذلك وفطر الله الناس على ذلك.

• • •

ثم اختلف العلماء والمفسرون في تفسير الفطرة على أقوال وكذلك الخلاف في قول النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»، ثم يقول أبو هريرة إقرأوا إن شئتم:

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾.

رواه البخاري[1] ومسلم[2] فالفطرة المراد بها الإسلام قـاله أبـو هريـرة وابن شهاب. وسئـل مجاهـد[3] عن الفـطرة فقـال هي الإسـلام وكـذلـك قـالـه قتـادة[4] ثم قـال مجـاهـد: (لا تَبْـدِيـلَ لِخَلْقِ الله) قال: لا تبديل لدين الله وقاله سعيـد بن جبير[5] وقتـادة والنخعي[6] وروي عن ابن عبـاس[7] وعكـرمـة[8] في إحـدى الروايتين عنهما والقـول بأن الفـطرة الإسلام هـو إحدى الـروايات عن الإمام أحمد وقاله ابن عبد البر في التمهيـد[9]. وقال آخـرون والفطرة هٰهنا الإسلام قال وهو المعروف عنـد عامـة السلف وأهل التأويل قاله في تفسير هذا الحديث المتقدم. ثم قال وأما قوله:

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

فقد أجمعوا على أن قـالوا دين الإسـلام انتهى: وليس كما قـال وذكر القـرطبـي في تفسيره[10] أقـوالاً في الفـطرة (منهـا) دين الإسلام وهو المعـروف عند عـامة السلف إلى أن قـال ومعنى هذا أن الطفل خلق سليماً من الكفر على الميثاق الذي أخـذه الله على

ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه[١] وأنهم إذا ماتوا قبل أن يدركوا في الجنة أولاد مسلمين كانوا أو أولاد كفار)[٢] انتهى.

وقال أبو بكر النقاش[٣] اختلف أهل التأويل في الفطرة فقيل على ملة إبراهيم ثم ذكر قريباً مما ذكره القرطبي.

●●●

وقد احتج لهذا القول بأدلة.

(منها) حديث أبي هريرة الذي في الصحيحين وقد تقدم[٤].

(ومنهـا) ما ثبت في صحيح مسلم[1] عن عِياض بنِ حِمَار المُجاشِعيِّ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: خلقتُ عبادي حُنَفَاءَ مسلمين فاجتالتهم الشياطين وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم وأمَرَتْهُمْ أن يُشْرِكُوا بي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلطاناً.

(ومنهـا) ما رواه الترمذي[2] عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد من والد كافر أو مسلم يولد على فطرة الإسلام ولكن الشياطين أتتهم فاجتالَتْهم عن دينهم فهوَّدتْهُم ونَصَّرتْهم ومجَّستهم وأمرتهم أن يُشركوا بالله ما لم يُنَزِّل به سُلطاناً».

(ومنهـا) ما في الصحيحين[3] خمس من الفطرة، أي من فطرة الإسلام. وفي مسلم[4] ورواه أحمد[5] وأبو داود [6] عشر من الفطرة وفي لفظ عشر من سنن الإسلام.

وقال جماعة من الفقهاء والمفسرين: كل مولود يولد على الفطرة التي خلق عليها في المعرفة بربه عز وجل معرفة مخالفة لخلقة

البهائم التي لا تصل بخلقتها إلى معرفته والفاطر الخالق وقوله تعالى:

﴿وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾(1).

يعني الذي خلقني ووجهوا هذا بقوله كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء يعني سليمة هل تحسون فيها من جدعاء مقطوعة الأذن، قالوا ففي هذا الحديث تمثيل أولاد بني آدم وأولاد البهائم لا نقص فيهم.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية يرد على من قال كل مولود يولد على ما سبق له في علم الله أنه سائر إليه.

قال الشيخ ومعلوم أن جميع المخلوقات بهذه المثابة فجميع البهائم هي مولودة على ما سبق في علم الله لها وحينئذ فيكون كل مخلوق مخلوقاً على الفطرة وأيضاً فلو كان المراد بذلك لم يكن لقوله فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه معنى فإنهما فعلا به ما هو الفطرة التي ولد عليها فلا فرق بين التهويد والتنصير.

ثم قال بعد أسطر فتمثيله ﷺ بالبهيمة التي ولدت جمعاء ثم جدعت يبين أن أبويه غيرا ما ولد عليه.

ثم قال بعد ذلك وقولكم خلقوا خاليين من المعرفة والإنكار من غير أن تكون الفطرة تقتضي واحداً منها بل يكون القلب كاللوح الذي يقبل كتابة الإيمان والكفر وليس هو لأحدهما أقبل منه للآخر فهذا قول فاسد جداً فحينئذ لا فرق بالنسبة إلى الفطرة بين المعرفة والإنكار والتهويد والتنصير والإسلام وإنما ذلك بحسب الأسباب فكان ينبغي أن يقال فأبواه يسلمانه ويهودانه

وينصـرانه فلمـا ذكر أن أبـويه يكفـرانه وذكـر الملل الفاسـدة دون الإسلام علم أن حكمه في حصول سبب مفصل غير حكم الكفر.

ثم قال بعد ذلك ففي الجملة كل ما كان قابلاً للمدح والذم على السواء لا يستحق مدحاً ولا ذماً والله تعالى يقول:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾(١).

فأمره بلزوم فطرته التي فطر الناس عليها.

وأيضـاً فالنبـي ﷺ شبههـا بالبهيمـة المجتمِعَة الخَلْق وشبـه مـا يطرأ عليهـا من الكفر بجـدع الأنفـ ومعلوم أن كمالهـا محمود ونقصـهـا مـذمـوم فكـيف تـكـون قبـل الـنقص لا مـحمـودة ولا مذمومة(٢)اهـ.

● ● ●

وقد ذكر الخلال(٣) في جامعه في كتاب أحكـام الملل باب الحكم المترتب على الفطرة.

(أنبأ) المَرْوَزِيّ أن أبا عبد الله قال في سبي أهل الحرب أنهم مسلمون إذا كانوا صغاراً وإن كانوا مع أحد الأبوين ويحتج بالحديث وذكر عنه نصوصاً كثيرة في هذا الباب.

وقد سئل الزهري[1] عن رجل عليه رقبة مؤمنة أيجزيه رضيع يعتقه قال: نعم لأنه ولد على الفطرة وهي الإسلام وقال الزهري يصلىٰ على كل مولود متوفىٰ وإن كان لبغية لأنه ولد على فطرة الإسلام. والإسلام: هو قول «لا إله إلاَّ الله» وذلك في قوله تعالى:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[2].

قال ابن عباس وأكثر المفسرين[3] قول لا إله إلاَّ الله ولهذا كان معلوماً بالفطرة أنه لا بد لكل موجود من موجد ولكل مصنوع من صانع كما قال تعالى:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[1].

يقول أخلقوا من غير خالق خَلَقهم أم خَلَقوا أنفسَهم مع اعترافهم:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[2].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ...﴾[3] الآيات الثلاث.

ولما كان علم النفوس بحاجتهم وفقرهم إلى الرب قبل علمهم بحاجتهم إلى الإله المعبود وقصدهم لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة كان إقرارهم بالله إقراراً فطرياً من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته ولهذا إنما بعثت الرسل تدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له فتفاصيل الأمر والنهي إنما تعرف من جهة الرسل.

وأما الرب تعالى فهو معروف بالفطرة:

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾[4].

فالمشركون من عباد الأصنام وغيرهم من أهل الكتاب معترفون بالله مقرون به أنه ربهم وخالقهم ورازقهم وأنه رب السمٰوات والأرض والشمس والقمر وأنه المقصود الأعظم، ولهذا

قال النبي ﷺ لأبي عمران بن حصين: «كم تعبد اليوم إلهاً»، قال: ستة في الأرض وواحد في السماء، قال: «فأيهم تعبد لرغبتك ورهبتك»، قال: الذي في السماء. رواه الترمذي[1]. فالله تعالى فطر الخلق كلهم على معرفته فطرة توحيد حتى من خلق مجنوناً مطبقاً مصْطَلَماً[2] لا يفهم شيئاً ما يحلف إلاَّ به ولا يلهج بلسانه بأكثر من اسمه المقدس فطرة بالغة.

ولقد حدثنا شيخنا ابن قاضي الجبل[3] عن بعض العلماء لا أستحضِرُه قال: لو تُرك طفل رضيع في بيت لا يكلم وله من يقوم بأمره لعرف ربه ونطق بالسريانية وكونه نطق بفطرته التي فطر عليها لم يستبعد. فنوع الإنسان أشرف من كثير من المخلوقات، قال ابن عباس: من جميع المخلوقات قاله في قوله:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[4].

ولا شك أنه أفضل من الجمادات.

● ● ●

وقد فطر الله الجمادات على تسبيحه وتحميده وتنزيهه نطقاً لا يفهمه إلاَّ الذي أنطقها به قال تعالى:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(١).

قال شيخنا ابن قاضي الجبل في هذه الآية قال تسبيحها تسبيح حقيقي، ولهذا قال إنه كان حليماً غفوراً، أي إذا كانت الجمادات التي لا تتنعم تسبح بحمد خالقها فهو حليم غفور إذ لم يعاجل المقصرين الذين كملت النعمة في حقهم بالعقوبة وقال تعالى:

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾(٢) الآية.

وقال تعالى:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾(٣).

وقال تعالى:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾(٤).

والآيات كثيرة في هذا الباب وقد أتى بلفظ الماضي الدال على وقوع التسبيح وصدوره بلفظ المضارع الدال على استمرار التسبيح وتجدده كل وقت ولا يستنكر معرفتها بخالقها وتسبيحها بحمده إذ قد فطرها عليه كما فطر بني آدم على الإقرار بربوبيته:

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾(١).

لم يتخلف منهم أحد.

• • •

وكما أخبر الله عن عباده أنهم يسبحونه بكرة وعشياً في قوله تعالى:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ... ﴾(٢).

وقال تعالى:

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾(٣).

وقال تعالى:

﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾(٤).

وكذلك أخبر سبحانه عن الجبال فقال تعالى في حق داود:

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾(٥).

قال أبو هريرة كان داود إذا سبح أجابته الجبال والطير بالتسبيح والذكر. وقال أبو الفرج ابن الجوزي قد روي أن داود كان إذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت حتى يشتاق هو فيسبح، وقد ثبت في صحيح مسلم[1] أن النبي ﷺ مر بجبل جُمْدان فقال: «هذا جُمْدانُ سَبَقَ المُفَرِّدُونَ»، قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»، فهذا جبل سبق المفردين بذكر الله إلى ذكر الله بل قد أخبر سبحانه أنه خاطب الجمادات فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾[2].

والتأويب هو ترجيع التسبيح، وأخبر سبحانه عن الحجارة أن منها لَمَا يهبِط من خشية الله[3]. وهذا يدل على أنها تعرف ربها معرفة تليق بها فإن الخشية تستلزم العلم بالمخشي وكذلك قوله:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[4].

وهذا خطاب من يعرف ربه ويعقل أمره وليس هذا خطاب تكوين لمعدوم فإنه خاطبهما بعد وجودهما وكذلك قوله:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾[5].

ومعنى أذنت أصغت واستمعت لقوله وأمره، وكذلك إخباره عن الأرض يوم القيامة أنها يومئذ تحدث أخبارها[1] وفي الترمذي[2] أن النبي ﷺ قال: «أتدرونَ ما أخبارُها»، قالوا: اللَّهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: «أَنْ تَشْهَدَ على كلِّ عبدٍ بما عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا من خير أو شر»، وهذه شهادة نطق لما تحملته من الشهادة في هذه الدار لما أوحى لها فإنه تعالى قال:

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾[3].

وكذلك أخبر سبحانه وتعالى عن سجود المخلوقات له فقال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ ﴾[4].

ولو كان سجودها هو مجرد دلالتها على الصانع كما يقوله بعض المفسرين لما اختص بكثير من الناس بل جميع العالم دال على صانعه وأمثال هذا كثير في القرآن وما كان بهذه المثابة كيف

يستنكر معرفته لربه وسجوده له وتسبيحه بحمده. ولو لم يكن في هذه الآيات إلاّ قوله تعالى:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

في أوائل هذه السور فإنه سبحانه أتى بلفظ ما المتناولة لغير أولي العلم قطعاً إماً اختصاصاً وإما تغليباً ولا يصح حملُ ما ذكرنا من الآيات على أولي العلم وتخصيصُها بهم إذ لو أريد ذلك لجيء بلفظ مَنْ المختصة بمن يعقل وإن كان قد وقع في القرآن ما لمن يعقل ومن لما لا يعقل ففيه بحث ليس هذا محل ذكره.

والمقصود إذا كانت هذه الجمادات قد فطرت على معرفة ربها وتسبيحه وتنزيهه والإنسان أشرف منها فلأن يفطر هو على معرفته بربه بطريق الأولى والأحرى لما ركب الله فيه من العقل والتمييز والفطنة لا سيما وقد نطق الكتاب والسنة بأنه فطره على الإسلام والإسلام كلمة التوحيد كما تقدم وإن كان الإسلام في الأصل هو الاستسلام والانقياد.

● ● ●

ومن تمام الكلام على أن معرفة الله تعالى فطرية وتقدم الاستدلال بالآية والحديث فإن أوَّل ما يبدأ به في الاستدلال الكتابُ والسنة ثم أقوال العلماء والمفسرين وإن كان في أصل المسألة الناس متنازعين في أصل المعرفة بالصانع هل هي فطرية أو نظرية، وإن شيخ الإسلام ابن تيمية يفصل فيقول يختلف باختلاف الناس ولكن الصحيح أنها فطرية لأنه قد ثبت أن

النبي ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة»[1]، ولكن قد يعرض للفطرة ما يفسدها فتحتاج حينئذ إلى النظر فهي في الأصل ضرورية وقد تكون نظرية. ثم المعرفة الواجبة لا تتعلق بنظر خاص بل قد تحصل ضرورية فتصفية النفس ورياضتها من أعظم الأسباب في حصول المعرفة الضرورية ولكن قد تحتاج إلى أمور يجب الإيمان بها فيتوقف على النظر فيجب النظر لما طرأ على الفطرة من الفساد فإن كون هذا العالم لا بد له من صانع وخالق ومدبر فهذا ضروري فكونه لا يعرف هذا إلاَّ بطريق النظر فيه نظر وأي نظر بل هو معلوم عقلاً وواجب عقلاً وقد أركزه الله تعالى في فطرة مخلوقاته متحركها وساكنها ناطقها وصامتها حيوانها وجمادها كما تقدم أنها مسبحة بحمده عارفة به.

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ومع دلالتها على الوحدانية مسبحة بحمده معترفة به تسجد له وأن جميع المخلوقات خلا كفار الثقلين تسبح بحمده وتسبيح كل شيء بحسبه فلولا أن كل شيء يسبح بحمده وينزهه ويعظمه بما لا نفهمه نحن ولا يعلمه إلاَّ الذي أنطقه به لما أخبرنا به وأنه دال على عظمته.

وقد روينا في جزء الفريابي[2] في كتاب الذكر له بإسناده

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (إن الجبل لينادي الجبل مقابله باسمه هل مر بك اليوم ذاكِرٌ لله عز وجل فإن قال نعم فيقون هنيئاً لك لكن ما مر عليَّ اليوم أحد يذكر الله).

وروى أيضاً بإسناده عن أنس رضي الله عنه قال: (ما من صباح ولا رواح إلاَّ تنادي بقاع الأرض بعضُها بعضاً يا جارة هل مر بك اليوم عبد فصلَّى عليك لله أو ذكر الله عليك فمن قائلة لا ومن قائلة نعم فإذا قالت نعم رأت بذلك لها فضلاً) فكل فطرة سليمة لم تَجْتَلْها الشياطين ولم تفسد عليها فطرتها تصدق بذلك وتُقِرُّ به وتزداد إيماناً ولا يقول هذه أخبار آحاد[1] وآثار لا تفيد شيئاً في هذا الباب وإنما هذه من باب الفرجة والمطالعة.

قلنا يكفينا ما تقدم لنا من إخبار الله تعالى في القرآن من الدليل القطعي عن الحجارة أن منها لما يهبط من خشية الله[2]، وهذا يدل على أنها تعرف ربها معرفة تليق بها وإلا لما هبطت من خشيته فإن الخشية تستلزم العلم بالمخشي وقد تقدم ذلك.

قال ابن عبد السلام[3] للعلماء في الحجارة وأنها تهبط من

خشية الله ثلاثة مذاهب: قالت الصوفية: هي حيوان وفيها جزء حي تسبح الله تعالى وتخر له وتسجد له، وقال آخرون: هذا من مجاز التشبيه. وقال الأشعري: الله تعالى يخلق لها حياة عند إرادة ذلك منها نحو جبل الطور. انتهى كلامه ذكره في النكت.

قلت ما ذكره من هذه الأقوال. أما القول الأول فهو قول بعض جهلة الصوفية[1] وإلا فكون الحجارة حيواناً مما يُعلم

بالفطرة بطلانه. وأما القول الثاني كونه من مجاز التشبيه فإن هذا مما يشهد الكتاب والسنَّة ببطلانه. أما الكتاب فما تقدم لنا من الآيات على تسبيح كل شيء بحمده. وأما السنَّة فتسبيح الحصى في كف النبي ﷺ ثم في كف غيره من الصحابة تسبيحاً يسمعه الحاضرون[1]. وقال النبي ﷺ: «إني لأعرِفُ حَجَراً كان يسلِّم عليَّ قبل أن أُبعث»[2]، فهذا الحجر عرف ربه وعرف رسوله ولو لم ينطق بكلام مسموع مفهوم مخصوص بذكر معين لما أخبر عنه

ولهذا أخبر النبي ﷺ عن جبل جُمدان فقال: «هذا جمدان يحبنا ونحبه»[١] وكذلك أخبر عن أحد أنه يحبنا ونحبه وهذا جبل يبغضنا ونبغضه[٢].

قال ابن عباس لما أراد الله تعالى أن يتجلى لموسى تطاولت الجبال ليتجلى لها وتواضع زبير يعني الطور فتجلى له وهذا يدل على أنها تعرف ربها.

وروى ابن الجوزي عن معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ في قوله: «جعله دكاً»[٣]، قال: صار لعظمته ستة أجبال فوقعت ثلاثة بالمدينة: أحد وورقان ورضوى ووقعت بمكة ثلاثة: ثَبير وحِراء وثَوْر.

بل هو سبحانه وتعالى قد خاطب الجمادات فقال تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾[٤].

فهذا الإباء والاستعفاء بعد أن عقلت خطابه وفهمته وعلمت عجزها.

وليس المقصود ذلك، وإنما المقصود أن الإنسان أشرف عند الله وأعظم من الجبال حتى من البيت لما روى ابن ماجه[1] عن ابن عمر قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبةِ ويقولُ: «ما أطيبَكِ وأطيبَ ريحَك وأعظم حرمتكِ والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ لحرمَةُ المؤمنِ أعظمُ عندَ اللَّهِ حُرْمَةً منكِ».

فمع شرف الإنسان لا يركب الله في فطرته وعقله ما يعرفه ربه من غير دليل نظري يحتاج فهمه إلى عسر وقد ينتقض عليه أو يشككه فيه من هو ألحن بحجته منه.

● ● ●

هذا الهدهد طير من الطيور وفي نظرنا عديم العقل يصيح كغيره من الطيور قد خاطب سليمان بأعظم التوحيد وأعلمه بغير ذلك فقال:

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

إلى قوله:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2].

هذا كله كلام الهدهد كما اتفق على ذلك المفسرون،

فمعرفة الله تعالى فطرية قد فطر الله تعالى عليها جميع المخلوقات.

فإن أريد بالمعرفة المعرفة التامة وهي معرفته بصفات الكمال ونعوت الجلال فيما لم يزل ولا يزال ومعرفة أسمائه وما أمر به وما نهى عنه وما أخبر به وما أراده من عباده شرعاً وما كرهه منهم ولم يرضه ولم يُرِدْ وقوعه فهذا ما يعلم إلاَّ بالسمع من جهة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فعبادة الله تعالى والإيمان به إنما يجب بالسمع ويلزم بالبلاغ.

قال الإمام أحمد في رواية المروزي معرفة الله تعالى في القلب تتفاضل وتزيد، وهذا يدل على أن المعرفة أصلها في القلب فطرية، ثم إنها تزيد وتتمكن بتظاهر الأدلة والقاضي أبو يعلى[1] في المعتمد استدل بهذه الرواية على أنها كسبية، وقال لأنها لو كانت فطرية لم تزد. وقال في رواية يعقوب أن المعرفة لا تزيد ولا تنقص، وهذه الرواية عكس الأولى وحملها القاضي على أنه أراد بالمعرفة ههنا الإقرار بالإسلام وهو لا يزيد ولا ينقص لأنه موقوف على الشهادتين وفيما قاله نظر، لأنه صدر في أول المسألة فقال: معرفة الله تحصل بأدلته الظاهرة وحججه القاهرة وهي أنفسنا والسمٰوات والأرض وما بينهما، وذلك أن آثار الصنعة لازمة لهذه الأشياء تدل على صانع صنعها ومنشىء أنشأها ذكره في المعتمد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الكلام على سورة القلم، وذكر أن أول ما أوجب الله على نبيه وأمره به:
﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾(1).

ثم قال بعد كلام كثير: «فقد بين أن الإقرار بالاعتراف بالخالق فطري ضروري في نفوس الناس وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج إلى نظر يحصل له به المعرفة وهذا قول جمهور الناس وعليه حذاق النظار أن المعرفة تحصل بالضرورة وقد تحصل بالنظر لمن فسدت فطرته كما اعترف بذلك خلائق من أئمة المتكلمين». انتهى.

وقال الشيخ أيضاً في شرح الأصفهانية: وأما طريقة القرآن في إثبات الصانع فإنّا قد بينّا في غير هذا الموضع اختلاف الناس في الإقرار بالصانع هل هو فطري أو نظري، وبينّا قول من قال: إنه فطري وإن كل مولود يولد على الفطرة وإنه قد يصير نظرياً لبعض الناس لما يعرض له من الشبه ويستدل على ذلك بالأدلة الكثيرة. انتهى. فإذا قلنا هذا مُحْدَث وكل محدَث فلا بد له من مُحْدِثٍ، أو هذا ممكن وكل ممكن فلا بد له من موجب، أو هذا موجود وكل موجود فلا بد له من موجد، أو هذا مخلوق وكل مخلوق فلا بد له من خالق، أو هذا مصنوع وكل مصنوع فلا بد له من صانع، ونحو ذلك فهذا صحيح معلوم بالفطرة، وقد يقول من يتحذلق بذهنه ويتهم أذهان الناس بالفساد ويركن إلى ذهنه وعقله فيقول: هذا يدل على محدث مطلق وواجب مطلق وواحد مطلق لا يمتنع تصوره من وقوع الشركة فيه فلهذا يكله الله تعالى إلى ذهنه وفهمه وعقله فما يرشده الله إلى الصواب:

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾(١).

فمن طلب الهداية من الله عز وجل واعترف بالعجز وعرف ربه بالقدرة ونفسه بالعجز وعلم أنه لا بد أن ينتهي إلى فاعل قديم لا يكون إلاَّ واحداً وواجبٍ بنفسه لا يكون إلاَّ واحداً فهو واحد مطلق عندنا، أليس هو معيناً في نفس الأمر وآيات الله سبحانه وتعالى دالة على نفسه المقدسة الشريفة فهذا وأمثاله ممن فسدت فطرته لا سيما في معرفة ربه فلا بد من النظر ولهذا قدمنا أنها فطرية، وأن الشيخ رحمه الله قال: وقد يعرض لبعض الناس من الشبه ما يفسد فطرته، فلا بد له من النظر وهذا الذي عرض هو ما ذكره النبي ﷺ في نفس الحديث: «أن كل مولود يولد على فطرة الإسلام ولكن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم، فمنهم من هودته ومنهم من نصرته ومنهم من مجسته»، ونقول ومنهم من وسوست له بما تشككه في خالقه وقد أخبر فقال عن رسله أنهم قالوا لقومهم:

﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾(٢).

يعني خالق السموات والأرض:

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾(٣).

أي خَلقني أفي الخالق شكّ. وقد قال:

﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ذهب طوائف من النظار إلى أن معرفة الله واجبة ولا طريق إليها إلاَّ بالنظر فأوجبوا النظر على كل أحد، وهذا القول إنما اشتهر في الأمة عن المعتزلة[1] ونحوهم، ولهذا قال أبو جعفر السمناني[2] وغيره إيجاب الأشعري النظر في

المعرفة بقية بقيت عليه من الاعتزال وقد دخل في هذا القول طوائف من الفقهاء من أصحاب الأئمة الأربعة كالقاضي أبي يعلى[1] وأتباعه مثل أبي الفرج الشيرازي[2] وأبي الخطاب[3] وابن عقيل[4] وغيرهم، ومع هذا فقد اختلف كلام الأشعري وأصحابه في إيجاب النظر، فقال أبو إسحاق الإسفرايني[5]: من اعتقد ما يجب اعتقاده هل يكتفي به اختلف الأصحاب فيه، ثم ذكر كلامه وكلام الأشعري وأصحابه مطولاً،

وذكـر في المسألـة قولين عنهم حتى إن أبـا إسحاق نفسـه اختلف كلامه ثم قال: واختلفوا أيضاً في النظر في قـواعد الـدين هل هـو من فروض الأعيان أو من فروض الكفايات، والذين أوجبـوا النظر منهم من قـال: لا يصح الإيمـان إلاَّ بـه، ومنهم من قـال: يصـح الإيمـان بدونـه لكن تاركـه عاصٍ ، وهـذه الأقوال كلهـا مـا يقـوم الدليل من الكتاب والسنَّة إلاَّ على بعضها.

ورأيت بخط بعض الفضلاء من أصحابنا، وقال طوائف من العلماء: النظر لا يجب على أحد إما لأن الواجب الاعتقاد الجازم دون المعرفة وذلك لا يحتاج إلى نظر، وإما لأن المعرفة لهـا طرق غير النظر فتحصل ضرورة وقد تحصل إلهاماً وقد تحصل بالتصفية وهـو قول طـوائف من النظار والفقهـاء وأهل الحـديث والصـوفيـة وغيرهم، وهو قول طائفـة من أصحاب أحمـد والشافعي وغيـرهما والله أعلم.

وقال بعض العلماء: يجب النـظر في حال دون حـال وعلى شخص دون شخص، فـوجـوبـه من العـوارض التي تجب على بعض النـاس في بعض الأحوال لا من اللوازم العـامـة فيقـال كـل علم وَجَبَ ولم يحصـل إلاَّ بالنـظر وجب النـظر، وأمـا إذا حصـل ضرورة أو حصل العلم بدون النظر أو لم يكن العلم واجباً لم يكن النظر واجباً.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في مـوضع من مصنفـاته هـذا الكلام، وقال: هذا أعدل الأقوال وكلام الأئمة والسلف إنما يـدل عليه والذين أوجبـوا النظر ليس معهم مـا يدل على عمـوم وجوبـه إنما يدل على أنه قد يجب فـإنهم قالـوا الواجب لا يحصـل إلاَّ به لقوله تعالى:

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ . . . ﴾[1] الآية.

وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾[2].

وقولـه:

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾[3].

فهـذه النصوص خـطاب مع المتكبـرين الجاحـدين فأمـروا بـالنظر ليعـرفـوا الحق ويقـروا بـه، ولا ريب أن النـظر يجب على هؤلاء والـذين خالفـوا في وجـوب النـظر ومنعـوا قـالـوا: لا نسلم وجوب المعرفة ولا نسلم انحصار طريقها في النظر.

والمقصـود أن الذين أوجبـوا لله على عبـاده أن يؤمنـوا بـالله ورسـوله وأن يـطيعـوا الله ورسـولـه، فهـذا فـرض على كـل أحـد ووجوب الإيمان بالله معلوم بالاضطرار من دين الإسلام ونصـوص القرآن متظاهرة به، فالعلم بمعرفة الله ضروري وإلَّا لو كان نـظرياً لكـان يجب على الرسـل أول ما يـدعونهم إلى النـظر، وهذا ممـا علم فسـاده من دين الإسلام، فـإن كل كـافر إذا أراد الـدخول في دين الإسلام أول ما يؤمن بالشهادتين فلو قـال: أنا أقـر بالخـالق، لم يكن بـذلك مسلمـاً ولو قـال: أنا أعـرف الله أنه رب العـالمين ورازقهم ومدبرهم لم يضر بذلك مسلماً فمعرفة الله فطرية حـاصلة لجمهور الخلق.

فإن قيل: إذا كانت معرفته تعالى فطرية ضرورية وهي ثابتة في فطرة كل أحد، وكيف ينكر ذلك كثير من النظار نظار المسلمين أو غيرهم وفي زعمهم أنهم الذين يقيمون الأدلة العقلية على المطالب الإلّهية.

فيقال: أول من عُرف في الإسلام بإنكار هذه المعرفة هم أهل الكلام الذين اتفق السلف على ذمهم من الجهمية[1] والقدرية[2] وهم عند سلف الأمة من أضل الطوائف وأجهلهم. هذا معنى ما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية وكذلك ما أركزه الله في فطرة كل أحد أنه إذا دعا لم يلتفت يمنة ولا يسرة بل يجد في قلبه ضرورة تطلّب العلو، ولهذا قال إمام الحرمين[3] لما أورد عليه معنى هذا قال: خبرني الهمداني.

وأما العلم الذي لا يحصل إلَّا بالنظر فيجب لأجله النظر لفهم القرآن الذي لا يحصل إلَّا بتدبره والنظر فيه وكذلك يجب النظر في مسائل النزاع التي لا يعلم الحق فيها إلَّا بالنظر فإذا أراد معرفة الحق فيها وجب عليه النظر فإذا اجتهد غاية الاجتهاد وبذل وسعه وأداه النظر إلى غير الحق فيها فخطؤه مغفور له وله أجر اجتهاده، وإن أصاب الحق فله أجران[1].

فالله تعالى يلهمنا الرشاد. ويوفقنا للسداد. في أقوالنا وأفعالنا مما يحبه ربنا ويرضاه ويفعل ذلك بإخواننا من المؤمنين آمين إنه ولي ذلك والقادر عليه والحمد لله رب العالمين وصلَّى الله على محمد النبي الأمي وآله وصحبه وسلم.

[تمت الرسالة]